الحفريات الأثرية في سورية
خلال نصف قرن

الأمير جعفر الحسني
عضو المجمع العلمي العربي

لما نضب معين المصادر المخطوطة المحدودة العدد التي استقى منها علماء التاريخ القديم مادة أبحاثه وتفاصيل أخباره . مني هذا الفرع من التاريخ بجمود كبير وتعرض بسبب نقص المصادر لشلل خطير ، وكاد يتسرب من جرائه اليأس الى نفوس أكثر المؤرخين ، لو لم يقدر لهذا العلم ظهور فئة من الباحثين أخذت منذ منتصف القرن الثامن عشر تنشد آفاقاً جديدة تتزود منها ما يشفي غليلها وينير سبيلها ، وفي طليعة هؤلاء البحاثة :

(Winckelman) مؤسس علم الآثار الحديث ، و (Volney) و (Renan) و (de Vogûé) و (Waddington) و (Rey) و (Robinson) و (Conder) و (Burckhardt) و (Clermont-Ganneau) و (Morgan) و (Cumont) و (Dussaud) وعشرات غيرهم ممن اطلق عليهم اسم علماء الآثار .

حولت هذه الفئة وجهها شطر بلاد الشرق الأوسط مهد الحضارات ومهبط الديانات ، علها تعثر في آثار السلف ما ضنت به عليهم الصحف المخطوطة والروايات المنقولة ، فجابت البلاد طولاً وعرضاً تستجوب معالمها وتنتزع أسرارها . ولم تهمل شاردة عنها ولا واردة إلا ودونتها . ثم عاد هؤلاء العلماء بعد جهد جبار وسعي قهار إلى بلادهم وقد غمرهم الأمل . وحل في نفوسهم الرجاء محل اليأس . وأصدروا بما حملوه معهم من حصاد رحلاتهم وتنوع مشاهداتهم عشرات بل مئات الكتب والأبحاث عن أمجاد السلف وآثارهم المشتتة في هـذه البلاد . ووصفوا صروحها المشيدة التي فتنهم جمالها وسحرتهم روعتها أحسن وصف ، وأدرك منها العلماء أنها وليدة ماض تليد ونتاج حضارة زاهرة درستها العصور وسكتت عنها السطور . وما هذه المعالم القائمة على ظهر الأرض سوى بقية ضئيلة من دنيا قديمة مجهولة ،

قاومت الأحداث عشرات القرون وصمدت لعاديات الزمن وقسوة العصور حتى أدركنا هذه البقية الباقية تشكو بشمم ظلم الطبيعة واهمال الانسان ، وهنالك ما هو أعظم منها قد طوحت به الأزمان وطغت عليه الأتربة والرمال فحجبته عن الانظار .

وقد خفي عن المؤرخين الى عهد قريب كنه هذه الصروح ، ودهشوا لها . ووصفوها بانها من عجائب الأنام . وذهب بعضهم الى أنها من عمل الجان ومن معجزات النبي سليمان ، وساد الناس هذا الاعتقاد قروناً طويلة ، وتداولته ألسنة الرواة ، وتناقلته الكتب أجيالاً ، إلى أن حان الزمن الذي بدد فيه علماء الآثار هذه الأوهام ، وأعلنوا للملأ حقيقة هذه المعالم ، وأنها من أمجاد السلف ، وما كان هؤلاء إلا بشر مثلنا ، ولكنهم سلكوا سبيل المجد فبلغوه وساروا في موكب الحضارة فتقدموه ، وبذوا أترابهم في هذا المضمار ، وخلفوا لنا من آثارهم مَنْجَماً لا يشح ومعيناً لا ينضب سيبقى مَنْهلاً للرواد على مدى الأزمان .

وما لبث هذا الوميض الذي تلمس على ضوئه هؤلاء العلماء طريقهم ، حتى أصبح بعد فترة قصيرة اشعاعاً يحيي الصدور ، يستضاء بنوره ويهتدى بهديه ، فانطلقت بعد صمت طويل عقد ألسنة تلك الصروح والدوائر المطموسة فتحدثنا عن نفسها بأصدق لسان وأفصح بيان . فاذا هي خير محدث ، وأفضل سند يركن اليها لكشف النقاب عن تاريخ السلف ، تقرب لنا ذاك الماضي البعيد الذي حسبه الناس الى عهد قريب أنه تلاشى مع الزمن وضاعت أخباره عنا الى الابد .

وقد فاقت باكورة أعمال هؤلاء البحاثة والرواد كل ما كان يرجى منها من نتائج ، ولمس أكابر المؤرخين والمؤسسات العلمية فوائد هذا العلم واعتبروه فتحاً جديداً وتنبئوا له مستقبلاً باهراً ، وقد تبوأ هذا العلم على حداثة عهده مكانته بين العلوم العصرية ، له أصوله وفروعه ، ونظمه وأسسه ، وتقرر دراسته في المعاهد العالمية العالية والجامعات الراقية . وقد نَفَذَ هذا العلم الحديث ، لا سيما بعد أن حلت رموز خطوط الأولين . الى صميم مجاهل العهود القديمة ، تمكن الباحث على ضوء وثائقها ومن خلال مخلفاتها وأنقاضها أن يرسم الخطوط الرئيسية لأوضاعها السياسية والعمرانية ، وأن يقف على نظمها الاجتماعية والثقافية . وأن يُرْجع بفضلها تاريخ الحضارة البشرية الى الوراء عشرات آلاف السنين .

فلا عجب ان احتلت البعثات الأثرية لدى الدول الغربية الكبرى مكانة رفيعة وتبنتها ورعتها بعنايتها ، حتى أرفقتها بحملاتها العسكرية كما فعل نابليون بونابرت في حملته على مصر . وقد رافقت بعثة أثريه أخرى الحملة الافرنسية التي توجهت الى لبنان في عام ١٨٦٠ ، واصطحبت أيضاً

الجيوش البريطانية الى العراق بعثة في عام ١٩١٥ . وقد توافدت البعثات الأثرية حتى الحرب العالمية الاولى على بلاد اليونان وجزرها ومصر والعراق وبلاد فارس وآسيا الصغرى وفلسطين . وكان نصيب سورية من تلك البعثات معدوم الأثر للاعتقاد السائد وقتئذ في الأوساط العلمية أنه لم يكن لسورية حضارة قديمة تتميز بها ولا هي جديرة بأن تفرد لها جهود مستقلة ، فهي بزعمها وليدة حضارات البلاد المجاورة . تستمد منها روحها وتسير بركابها ، وتتأثر بعواملها ولذلك أهملتها البعثات وانصرفت عنها الى البلاد المجاورة تنقب عن آثارها الدفينة .

وكان من حسن حظ البلاد السورية والعلم معاً انصراف البعثات عنها وزهدها بها ، وأن لا يتبين لها وقتئذ حقيقة ثروتها الأثرية لأن هذه البعثات كانت لم تزل في عهد طفولتها ولم تجتز دور التجربة والاختبار ، وينقص أكثر رجالها الخبرة العلمية والعملية الكافية التي تضمن نجاح الغاية التي يعملون من أجلها ، وكان يشوب بعضها روح استثمارية ، تستغل جهل أهل البلاد بقيمة آثارهم وزهدهم بها ليستحصلوا من حكوماتهم على أكثر عدد من الآثار وأهمها ليزودوا بها متاحف بلادهم ، ويثيروا اهتمام مواطنيهم وليحملوا حكوماتهم على شد أزرهم وبذل المال لمواصلة أعمالهم . وهكذا صان هذا الاعتقاد آثار سورية وجنب العلم أخطاء قد لا تستدرك تبينها علماء هذا الجيل الذي بلغ فيه علم الآثار أشده واستكمل أسباب عدته ووحدت غايته . وحملوا على أخطاء الجيل الماضي وخطله . ومن الجحود أن ننكر على علماء الجيل الماضي فضل جهودهم وأثرهم في خلق هذا العلم مهما أساؤا ، وأن نلتمس لهم بعض العذر لأن ما ارتكبه بعضهم كان شراً لا بد منه في بادىء الأمر ويتعذر تجنبه ، لقد كان علم الآثار كما قلنا في عهد نشأته وجميع البلاد التي عملوا فيها خاضعة لنير الامتيازات الأجنبية وسيطرته . وليس بوسع حكوماتها أن ترد طالباً أو تقصى راغباً ، فلا عجب أن اختلط فيها تحت ستار العلم ، الصالح والطالح ، والعالم والمتطفل ، والباحث والتاجر وبينهم أيضاً المبشر والمتجسس .

لئن سلمت سورية من مساوىء البعثات الأثرية في مرحلتها الاولى ، فقد ابتليت خلالها بما هو اشد وادهى . فما كاد ينتشر في البلاد الاجنبية خبر الاكتشافات الأثرية في الشرق الاوسط حتى طغت موجة عمياء على غواة التحف وتجارها في اوربا وامريكا وشاعت بين الناس رغبة اقتنائها ، وانتشر من جراء ذلك في كافة البلاد ومنها سورية سماسرة الآثار يسلبونها آثارها ونفائسها باسعار مغرية مما شجع فئة من ابناء البلاد على ان يسلكوا هذا السبيل ويمتهنوا هذه التجارة الرابحة واخذ الوف من ابناء المدن والقرى ينقبون عن الآثار ليبيعوها الى هؤلاء التجار وكل ذلك يجري والحكومة العثمانية بغفلة عنهم وعن آثار بلادها ، تاركة لهم الحبل على الغارب

يصولون ويجلون ، لا وازع يردعهم ولا سلطان يخشونه وكان هؤلاء الناس اشد وطأة على البلاد من الغريب واعلم بخفاياها ، ورب الدار ادرى بما فيها . فجردوا البيوتات القديمة من تحفها والمساجد والمعابد من ذخائرها واعلاقها . وسطوا على الارض واستخرجوا نفائسها . وقد اتخموا بما صدروه من الآثار متاحف البلاد الاجنبية واشبعوا نهم غواتها وجشع تجارها . وتقدر قيمة ما خسرته سورية من آثارها بملايين الليرات الذهبية .

وقد استرعت الآثار التي انتقلت من سورية بطريق التجارة الى بلاد الغرب انتباه علماء الآثار واهتمامهم وتبين لهم مكانتها التاريخية والفنية وأثرها العظيم في تطور الحضارات القديمة وثبت لديهم بأن الشام هى عضو عامل في ذاك العالم القديم ، وهي من امهات الحضارات المندثرة واصولها لا كما زعم بعضهم بانها ربيبتها ، واخذت الاوساط العلمية منذ ان ثبتت هذه الحقيقة تتطلع الى سورية وتترقب سنوح الفرص لغزوها ببعثاتها الأثرية وهذا ما حمل جامعة الأمم ان تشترط في المادة (١٤) من صك الانتداب لزوم سن تشريع لحماية الآثار القديمة وصيانتها ، يُضْمَنُ فيه تنشيط البعثات الأثرية . ويكفل المساواة فيما بين الأمم دون تميز او استثناء ، والغاية من ذلك الحيلولة دون منافسة الدول في التنقيب عن الآثار او استئثار الاقوياء منهم بنصيب الأسد .

وبعد ان اقرت جامعة الأمم الانتداب الافرنسي على سوريا ولبنان ووضعت السلطة المنتدبة نظم الآثار القديمة وقد روعي فيها ما اشترطه صك الانتداب . توافدت البعثات الأثرية على سوريا منها الافرنسية ، والالمانية ، والانكليزية ، والبلجكية ، والتشكوسلوفاكية ، والدنمركية والامريكية ، واخذت هذه البعثات منذ عام ١٩٢١ الى ١٩٣٩ تنقب عن الآثار في المواقع التالية :

تل النبي مند جنوبي بحيرة حمص وهى مدينة (قدِش) الحثيّة .
والمشرفة شرقي حمص وهى مدينة (قَطْنا) القديمة .
وخان شيخون بين حلب وحماه .
والنيرب وسفيره جنوبي حلب .
وتل أحمر وتل برسيب وتل خلف وتل براك وأرسلان طاش في الجزيرة .
وتل رفعت شمالي حلب ، وهي العاصمة الآرامية (أرباد) .
وشيخ سعد في حوران .
وصالحية الفرات وهي مدينة دورا — أرُوبس القديمة ومرفاء تدمر على الفرات .

وتل الحريري وهي (ماري) عاصمة المملكة الشومارية في شرقي سورية .

ومسكنة وهي مدينة بالس على الفرات .

وافاميا شمالي حماة وهى المدينة السلوقية المشهورة .

وقلعة حلب .

وقلعة حماة .

ورأس شمرة قرب اللاذقية وهى مدينة (أوغاريت) القديمة ومينة البيضاء وهى مرفأ (أوغاريت) .

وقامت مصلحة الآثار في عهد الانتداب الافرنسي بحفريات في تدمر وقصر الحير ، والحلابية ، كما قام متحف دمشق بحفريات في تربة جوبر الاسرائيلية ، وترب طفس وخسفين وتسيل الرومانية . وقامت مصلحة الآثار السورية في عهد الاستقلال بحفريات في الرقة وملعب بصرى وملعب جبلة .

وقد أعطت هذه الحفريات أعظم النتائج العلمية والفنية لا سيما حفريات رأس شمرا وتل الحريري وتل خلف وقصر الحير التي فاقت مكتشفاتها كل تقدير فقد ألقت نوراً على كثير من القضايا التاريخية الغامضة وصححت جملة نظريات خاطئة . ويحق لسوريا أن تعتز بمكانتها التاريخية ومساهمتها الكبيرة في بناء الحضارة البشرية التي ينعم العالم بها حتى اليوم ، وها هي صروحها القائمة ومتاحفها الزاخرة بروائعها خير شاهد على صحة ما نقول .

جعفر الحسني

